جامعة المنصورة
كليـة الآداب

عادات وتقاليد الحجاج في طرابلس من خلال رحلات العياشي(ت ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)

إعـــداد
دكتور/ وليد علي الطنطاوي
أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بجامعة المدينة العالمية بماليزيا

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الثالث و الستون – أغسطس ٢٠١٨

عادات وتقاليد الحجاج في طرابلس من خلال رحلات العياشي (ت ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)

د. وليد علي الطنطاوي

ملخص البحث

عرضت في موضوع عادات وتقاليد الحجاج في طرابلس خلال رحلات العياشي، لتعريف مختصر بالعياشي، ونبذة تاريخية عن زمن رحلات العياشي الثلاث، ورحلة الحج وما تشمله من دليل وطعام وشراب وغيره، وأسباب اختيار طرابلس الغرب محطة للحجاج المغاربة، وعادات وتقاليد حجاج بلاد المغرب بطرابلس، وعادات وتقاليد حجاج طرابلس في رحيلهم وعود.

المقدمـــة :

كانت طربلس الغرب والقاهرة تمثلان أكبر محطتين في رحلة الحج المغربية، إذ كانتا تقسمان الرحلة الطويلة إلى ثلاثة أقسام منفصلة حيث يتم الاستعداد في كل محطة منهما من جديد للمرحلتين التاليتين، وكأن كل منهما رحلة جديدة، من إعداد المطايا والأدوات اللازمة للمعاش اليومي، وخاصة القرب أو الروايا التى يحمل فيها الماء، وتنقسم رحلة الحج إلي سفرتين؛ أولاهما: رحلة الذهاب، والثانية: رحلة الإياب[١]، وقد اعتاد الرحالة الذين كتبوا رحلاتهم أن تكون رحلة الذهاب مفصلة فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية الطبيعية، ورحلة الإياب سريعة الوصف، مبتسرة من كونها اختصارًا لرحلة الذهاب الرئيسة، ولقد ظهر ذلك جليا من خلال رحلات العياشي.

والعياشي هو: أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، المالكي، المغربي، كان متبحرا في علوم الدين والتصوف والأدب، نسبة إلى قبيلة العياشين الذين سكونوا مدينة سجلماسة في أقصى صحراء المغرب على حافة المفازة المؤدية إلى بلاد السودان وغانة،ولد عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م وتوفي عام ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م، وله مؤلفات عدة[٢]، قام بثلاث رحلات لأداء فريضة الحج مر بها بطرابلس: الرحلة الأولى: قام بها في شهر ربيع الأول سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م، أما الرحلة الثانية فقام بها في ربيع الأول سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م، أما رحلته الثالثة والأخيرة فكانت في شهر ربيع الآخر سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م [٣].

---

[١] كانت رحلة الإياب دائما مختصرة لكون القافلة تمر بنفس الأماكن التي مرت بها في رحلة الذهاب، وفي ذلك يقول العياشي: "نرد المناهل التى ذكرناها في الذهاب" . الرحلة العياشية، تحقيق د. سعيد الفاضلي، د. سليمان القرشي، طبعة دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ج٢ص١٧٠.

[٢] انظر محمد الصغير بن الحاج الوفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادى، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٠م، ص ٢٦١؛ وقارن محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبعة فاس ١٣١٠هـ، ص ٢٦٢.

[٣] انظر العياشي: الرحلة، ج١ص٥٢-٥٤.

ويمكن الحديث عن عادات وتقاليد الحجاج في رحيلهم وعودتهم بطرابلس الغرب من خلال رحلات العياشي، وذلك على النحو التالي:

١. بنبذة تاريخية
٢. ططرابلس الغرب محطة الحجاج المغاربة.
٣. ععادات وتقاليد حجاج بلاد المغرب بطرابلس.
٤. ععادات وتقاليد حجاج طرابلس في رحيلهم وعودتهم.

وأفصّل القول على النحو الآتي:

١- نبذة تاريخية

كانت طرابلس تابعة للدولة العثمانية منذ سنة٩٥٨هـ/١٥٥١م[٤]، وكانت سلطة الدولة العثمانية اسمية في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي؛ فكان يتداول على حكم طرابلس ويدير شئونها باشا عسكري يلقب (داي) وهو قائد لفرقة من الجنود الإنكشاريين، وكان الباشا أول الأمر يتمتع بمركز ممتاز ويسيطر على جنوده سيطرة تامة، وكان تعيينه يتم من قبل السلطان العثماني في الآستانة، ولكن تفشي الفساد والفوضى بين صفوف الإنكشارية جعل مركز الباشاوات مهتزا، وقد كثر عزلهم وقتلهم من قبل الجنود، ويطلب من السلطان الموافقة على هذا التعيين نظير هدايا وبعض الأموال ترسل له[٥] .

وكان المتولي لشئون طرابلس زمن رحلات العياشي الثلاثة هو عثمان الساقزلي باشا (١٠٥٩-١٠٨٢هـ/ ١٦٤٩-١٦٧٢م)[٦]، الذي استطاع في اليوم التالي لتنصيبه إرسال رسولين إلى السلطان العثماني محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩هـ/١٦٤٨-١٦٨٧م) بالأستانة ومعهما هدايا نفيسة، وعادا بفرمانا سلطانيا يثبته في منصبه رسميا[٧]، وكان عليه أن يرسل كل سنتين

---

[٤] الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، طرابلس، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص ٣٠٣؛ وقارن شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق د. محمد عبد الكريم موافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م، ص ١٠٧. وكان الحكم العثماني لطرابلس من خلال عهدين: العهد العثماني الأول (٩٥٧-١١٢٢هـ/١٥٥١-١٧١١م)، العهد العثماني الثاني (١٢٥٠-١٣٢٩هـ/١٨٣٥-١٩١١م)، تخللتهما فترة العهد القرمانلي، وبذلك تكون قد استمرت تبعية طرابلس للدولة العثمانية مدة ٣٦٠عاما.

[٥] انظر اتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، طبعة الدار العربية للكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٢٦٣-٢٧٧ ؛ ابن غلبون: التذكار ص ١٣٠ ؛ شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٤٥.

[٦] إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص٢٧٨؛ شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٥٤؛ خليفة التليسي: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الطبعة الثانية، ١٩٩٧،ص ٨٧.

[٧] إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص٢٨١؛ شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٥٤؛ النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت ج١ ص ٢٣٩.

بهدايا ثمينة للسلطان ووالدته ووزرائه وضباط الحاشية[٨].

١- طرابلس الغرب محطة الحجاج المغاربة:

يصف العياشي طرابلس الغرب في رحلاته بالمدينة في جل المواضع التى يتحدث عنها وقد وضع لنا عنوانا بذلك فقال" ذكر دخولنا لمدينة طرابلس حماها الله من الأغيار"[٩]، ووصفها بقوله: "وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة ومعائبها قليلة، أنيقة البناء فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرات عائدة، لا تكاد تسمع من أحد من أهلها لغوا إلا سلاما، ولو لمن استحق ملاما؛ سيما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في إفضالهم عليهم وإنعامهم"[١٠]. وأضاف بأنها "عرفت بحصانتها، وهي برية بحرية، عالية الأسوار ، لها بابان: واحد إلى البر والآخر إلى البحر؛ لأن البحر محيط بكثير من جهاتها، والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر، بينه وبين البحر، ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو- دمرهم الله- وله مراكب قل نظيرها، معدات للجهاد في البحر[١١]، قل ما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقل ما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد"[١٢].

لعل صفات هذه المدينة تبين الأسباب التى جعلتها محطة رئيسة للحجاج المغاربة، ويضاف إليها سماحة وحسن خلق أهلها وحسن لقائهم، وعدم زيادة الأسعار على الحجاج، وقلة الغش فيها، وندرة الأمراض[١٣].

وقد اتفق الرحالة والمؤرخون على أن طرابلس في تلك الفترة كانت تتمتع بالاستقرار والأمن وكثرة المساجد[١٤]، وقد كتب القائد الأسباني (بيدرو نافارو)[١٥] عن طرابلس بأنها " أكبر كثيرًا مما

---

[٨] اتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص٢٨١. وقد ذكر روسي أن تغطية هذه النفقات الكبيرة تأتي من غنائم القرصنة ومن الضرائب الفادحة التي أثقل بها كاهل المواطنين، أكثر مما كان قبله.

[٩] العياشى: الرحلة ج١ ص ١٣٥. زار العياشي طرابلس وأقام بها خلال الثلاث رحلات التى مر بها في طريقه إلى الحج وكرر وصف طرابلس بالمدينة في أكثر من موضع في الرحلة. انظر ج١ ص ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

[١٠] العياشى: المصدر السابق ج١ ص ١٣٣.

[١١] انظر إتوري روسي: ليبيا ص ٢٨٣-٢٨٤؛ شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٥٤؛ النائب الأنصاري: المنهل العذب ج١ ص٢٣٩.

[١٢] العياشي : الرحلة ج١ ص١٣٥.

[١٣] العياشى: المصدر السابق ج١ ص ١٣٤.

[١٤] عوض مصطفى السعداوي: حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته، المؤتمر التاريخى، ليبيا فى التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الليبية، ١٦-٢٣ مارس ١٩٦٨م ، ص ٢٧٩.

[١٥] دون بدرو نافارو : قائد الحملة الأسبانية على طرابلس سنة ١٥١٠م، وقد بعث بهذا التقرير إلى نائب الملك بصقلية. انظر عمر محمد الباروني: الأسبان وفرسان

كنت أتصور، وأن الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا بجمالها وعظمتها لم يقولوا إلا الحقيقة"[١٦].

طرابلس ملتقى أركاب الحج : هناك بعض البلدان التى لا يلزم جميع الحجاج دخولها، وكان يكتفى بدخول بعضهم فقط لتزويدهم بما يحتاجون إليه[١٧]، أما طرابلس فكانت محطة رئيسة لجميع الحجاج المارين بها. فكانت المنطقة مجمعًا للحجاج الذاهبين والعائدين من رحلات الحج، حتى أن أهلها اعتادوا على كثرة المارين فاعتادوا على السماحة وحسن الخلق مع الحجاج[١٨]، سواء حجاج الساحل، او الصحراء إذ نجد بها ركبا للحجاج الواردين على الإبل من الصحراء، مما يعنى أن فريقا من حجاج الصحراء كان يتجه نحو طرابلس متخذا الطريق الساحلى سبيلاً للوصول إلى الحج [١٩].

ركب الحاج: يبدأ إعداد الركب بشراء جمال القافلة أو كرائها لمسافة وعادة ما يسير ملاك جمال القافلة مع الركب إلى المحطة الرئيسية الموالية، حيث يبدل الركب جماله شراءً أو كراءً، ويكون سير القوافل في الصيف في الليل ، يبدأ قرب الغروب وحتى الفجر وظهور خيوط النهار الاولى، حيث تخلد القافلة للراحة والنوم، نظرا لشدة الحر فى الصحراء، مما يمنع السير نهاراً، وأما في الشتاء[٢٠] فيكون المسير نهارا، يبدأ من الفجر وحتى المغرب [٢١]، وقد عبر العياشي عن صعوبة السير في فصل الشتاء بقوله: "كأننا نسير على أجفان العين"[٢٢]. وكانت الظروف تضطر البعض

القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٥٢م، ص ٢٢-٢٣.

[١٦] انظر عمر محمد الباروني: المصدر السابق .

[١٧] العياشي: الرحلة ج١ص ١٣١-١٣٢.

[١٨] فالحسن الوزان من القرن الخامس عشر الميلادي وصف الليبيين قائلا: " وسكان ليبيا سواء منهم الأفارقة والعرب ذوو كرم ولطف يعملون كل ما في استطاعتهم لخدمة إخوانهم ويحترمون الغريب غاية الاحترام ، وهم على جانب كبير من الطيوبة والصراحة والاخلاص". وصف أفريقيا، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م. ص١٨٠.

[١٩] النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ج١ ص٢٠٨.

[٢٠] في الشتاء تقصر الأيام وتكثر المراحل، وتتسع الأمعاء للأكل فلا يكاد يكفي الإنسان ما يحمله من الزاد، وهذا عكس فصل الربيع فقد فضل للناس بعد الخروج من برقة عامة أزوادهم، حتى قال بعض الحجاج بعد الوصول إلى مصر: قدر الله علينا أن نأكل الطعام بأغلى ثمن في أرض رخيصة الأسعار كثيرة الأرزاق، وذلك أنهم اشتروا الطعام من طرابلس بسعر غال واكتروا عليه بأضعاف مما اشتروه به إلى مصر، فلم يقدر لهم أن يأكلوه إلا في مصر، فيأكلون الأكلة منه في مصر بثمن ثلاثين أكلة من طعام مصر. العياشي: الرحلة ج٢ص٤٩١.

[٢١] معدل سير القافلة اليومي ١٢ ساعة، وإذا عرفنا أن سرعة سير القافلة في الساعة ٦ كيلو مترات ، فإن المسافة التى تقطعها القافلة في اليوم الواحد تكون في حدود سبعين كيلو مترا. انظر سلفادور بونو: تجارة طرابلس عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني ١٩٨١، طرابلس، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، ص١٧.

(٢٢) الرحلة، ج٢ص٤٨٨.

إلى السير على الأقدام للدخول إلى بعض المدن أو العمران؛ ومن ذلك قول العياشي: "ودخلت أنا وبعض الأصحاب إلى البلد على رجلي ، ولم ألحق بالركب إلا بعد تعب وعناء"[٢٣].

والركب يشمل التجار والحجاج ومن يصحبهم ويسير في ركابهم ممن سماهم العياشي بالصعاليك[٢٤]، وكان الصعاليك يتقدمون ركب الحجاج أحيانا(٢٥)، ويتم مراعاة حال هؤلاء عند تحصيل أجرة الدليل وغيره، فلا يؤخذ منهم، بل كان أهل الركب يعطونهم أحيانا أموال(٢٦)، كصورة للتكافل الاجتماعي، وأحيانا كان الركب لا يشمل أهل بلد وحدها، وإنما يضاف إليهم أركاب من بلدان أخرى مجاورة(٢٧)، فقد ذكر العياشي أن ركبهم انطلق من طرابلس مع ركب المراكشيين، وأن ركب الجزائر رحل قبلهم بيوم(٢٨)، كما ذكر ما يدل على قوة وزيادة عدد بعض الرحلات وقلة أعداد بعضها، ومن ذلك وصفه لركب أهل مراكش بأنه " ليس بالقوي"(٢٩)، ووصف ركب تونس بقوله: ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس في شارة حسنة وفخامة هيئة، في بشر كثير وسواد عظيم كسواد الليل، يفعم الطرقات كإفعام السيل يجرون سبع قراريط وخمس محفات زادت في أبهتهم وزينتهم(٣٠).

وكان الحجاج إذا دخل عليهم الليل بالقرب من العمران يدخلونه ويبيتون بإزاء المسجد[٣١]، وكان الحجاج يكتسبون المعارف عن البلدان التى يمرون بها، وكانت مشاهداتهم تكسبهم خبرات جديدة ، فقد ورد عن العياشي أن الحجاج كانوا ينزلون عن رواحلهم للتفرج على المشاهد الجديدة عليهم "ولم نملك لأنفسنا أن نزلنا عن الرواحل للتفرج فيهم"[٣٢]، كما كان كانت رؤية البحر والوضوء من مياهه متعة لمن لم يره من حجاج الصحراء، فإذا اقتربوا منه "تسارع إليه من لم يعرفه من الحجاج"[٣٣].

أمير الركب: لركب الحاج قائد مطلق الصلاحية والنفوذ يسمى " شيخ الركب" أو "المقدم" أو "أمير الركب"، ويكون عادة صاحب مكانة علمية أو دينية مهمة.

وصفه العياشي بأن فيه نجدة وكفاية في الأمور المهمة، وكثيرا ما حمى الركب من اللصوص، أو استنقذ من اللصوص ما سرقوه من الركب[٣٤]،

---

(٢٣) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٢.

(٢٤) الصعلوك: الفقير. انظر الرازي: مختار الصحاح، تحقيق شهاب الدين أبى عمر، ترتيب محمود خاطر، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٤٤٣.

(٢٥) العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٩.

(٢٦) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٩٢.

(٢٧) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٢

(٢٨) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٨٧

(٢٩) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٢.

(٣٠) العياشي: الرحلة ج٢ص٥٠٣.

(٣١) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٢.

(٣٢) العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٦. وكان العلماء يسجلون تلك المشاهد والأحداث في كتبهم.

(٣٣) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.

(٣٤) العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٨.

وكان يتقدم الركب أحيانا ويسأل من يلتقي بهم عن المسالك التى يسير فيها الركب[٣٥].

الدليل: للركب دليل تتم مؤاجرته مقابل أجر معلوم حتى تصل قافلة الركب إلى المحطة التى تنتهي عندها معرفة الدليل بالأرض، ويجب أن يكون الدليل ماهراً عارفاً بالأرض ومسالكها ومهامها ومواطن المياه فيها، خبيراً بمظان الخطر والخوف لتتجنبها القافلة[٣٦]، ويطلق على الدليل أحيانا لفظ الخبير، ويكون أمام الركب[٣٧]. ومهمته "هداية الطريق والدلالة على موارد الماء"[٣٨]، ويقوم الحجاج بجمع أجرته من بعضهم(٣٩)، ويتم تغيير دليل الركب من مكان لآخر[٤٠] .

السفر بحراً: مع ازدياد هذه العوائق والمخاطر بدأ الناس يرحلون للحج بحراً ركوب السفن، وكانت السواحل عرضة لنزول العدو البحري، إما في غارات عدائية أو بناء على اتفاقيات سلمية [٤١]،

الطعام والماء:

بالنسبة للماء، كانت الحاجة إليه شديدة إذا كانت الرحلة في فصل الصيف، وكان الحجاج يجدون مشقة عند المرور بالآبار خبيثة الماء التي يتغير لون ورائحة وطعم الماء فيها أو قليلة الماء[٤٢]، وقد يمر الحجاج على بعض الآبار ويحاولون إصلاحها فيستطيعون وقد لا ينجحون في إصلاح بعضها، ويكاد الناس أن يموتوا عطشا لقلة الماء في بعض المناطق، أو لملوحة الماء التي لا يستساغ ولو مع الضرورة أما في فصل الربيع فلا يضطر الناس إلى الماء كل الاضطرار[٤٣].

وكانت عادة الحجاج إذا وجدوا آبارا عذبة كثيرة الماء، كانوا يقفون عندها حتى يشربوا ويأخذوا منها قدر ما يكفي ليومين أو أكثر، ويسقون دوابهم[٤٤]،وإذا كانت الآبار بعيدة كانوا يرسلون من يأتي لهم بالماء في القرب[٤٥].

وأما بالنسبة للطعام، فزاد رجال القافلة يتكون من مواد جافة مهيأة سلفا، كدقيق القمح والشعير، والبصل الجاف، وشحم الضأن، وزيت الزيتون، والزبدة، والخبز اليابس، واللحم المجفف(القديد) وكذلك الدشيشة وهي عبارة عن شعير مجروش ، يحصد أخضر ويطبخ ثم يجفف بالشمس ويجرش بالرحي، وحين يهيأ ليكون زاد المسافر، يضاف إليه الزيت والفلفل الحار والطماطم اليابسة والبهارات وقطع صغيرة من

---

[٣٥] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٦.

(٣٦) ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن الدليل يسمى " التاكشيف" وتعرف مهنته بـ " التاكشيفت" وهو تحريف للكشاف والكشافة بالعربية. الرحلة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٩٩.

(٣٧) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٨٨ .

(٣٨) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٩٢.

(٣٩)العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٩٢، ذكر العياشي أنهم غرموا قيمة ناقة تكسرت للدليل تطييبا لخاطره.

(٤٠) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٩٥.

[٤١] شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٣٠-٢٥١.

[٤٢] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٩. وقد ذكر العياشي أنهم كانوا يمرون ببعض الطرق المسلوكة ، وكان الماء قليلا في آبارها لا يكفي القليل من الناس فضلا عن الركب.

[٤٣] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٩.

[٤٤] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٩.

[٤٥] العياشي: الرحلة ج١ ص١٣١.

اللحم المجفف ويوضع في كيس جلدي (مزود) وحين تحضيره تضاف كمية منه إلى الماء الذي يوضع في قدر فيغلي على النار، ليعطي بعد نضجه حساء يحوى على العناصر الغذائية الأساسية، كما يصبح مرقا للأكلة الشعبية (البازين) (٤٦). وكان الحجاج يقسطون الزاد على المراحل المعتادة لطول المسافة(٤٧).

ولم تكن هناك مشكلة كبيرة بالنسبة للطعام لدى الحجاج عند مرورهم بالعمران؛ لتوفر الأسواق التى يتم منها شراء الاحتياجات، ويستفيدون من رخص الأسعار أو جودة السلع في بعض الأماكن فيشترون فوق الحاجة(٤٨)، كما كان من بين أهل الديار من يقدم للحجاج الطعام[٤٩].وكان بالطريق سباخ للملح ينزل عندها الحجاج لأخذ حاجتهم منه[٥٠].

ومشقة السفر جعلت العياشي يختار اسم "ماء الموائد" عنوانا لرحلته، ويقصد التعبير عن أنها رحلة العطش، خلال الصحراوات القاحلة، كما في صحراء برقة التى يقال عنها "غرقة لا برقة"[٥١] وصحراء التيه بين مصر وسواحل جنوب الشام، وإلى جانب العطش كانت القوافل تواجه القحط والمحل وقلة الزاد والوباء[٥٢].

الرياح: كانت شدة الرياح من العوامل المؤثرة في سير ركب الحجاج فكان الناس لا يهدأ لهم روع بسببها[٥٣]، كما كانت سببا في عدم الطبخ وعدم القدرة على وقود النار من قوة الريح[٥٤].

تأمين ركب الحجاج: تضم القافلة عناصر مسلحة تقوم بمهمة الدفاع عنها من قطاع الطرق واللصوص، وكان الحجاج يتخذون خفير ليخفر الركب من اللصوص[٥٥]، فقد كان الخوف من اللصوص على طول الطريق الصحراوي في كل مكان، خاصة في البلاد البخيلة على أهلها بالرزق، الأمر الذي يعنى أن معظم اللصوص كانوا من أعراب الصحراء الفقراء، الذين وجدوا في

(٤٦) فرديدريك هورغان: رحلتان عبر الصحراء، طرابلس، دار الفرجاني، ١٩٧٤ص٧٤؛ بشير يوشع: غدامس وثائق تجارية، طرابلس مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطالي، ١٩٨٢، ص ١٨١.

(٤٧) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٨٩.

(٤٨) العياشي: الرحلة، ج١ص ١٧٣. كان ركب الحج يشترى من الأعراب بعض السلع مثل القمح والتمر والزيت والإبل والغنم.

[٤٩]العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٦. وقد ذكر العياشي أنه كان معروفا لدى الحجاج أن أهالي بعض النواحى كانوا يضعون الأطعمة الكثيرة من الزرع والتمر والإدام واللحم خارج المسجد بجوار أضرحة الأولياء ليتناولها من يقصد الضريح ، وكان ذلك معروفا لدى الحجاج، ولم يكن بوسع الأهالي أن يصنعوا ذلك سنوات القحط والجوع. انظر ج١ص١٢٧-١٢٨.

[٥٠] العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.ومن ذلك برج الملح على شاطئ طرابلس قال عنها العياشي" فيها ملح عجيب".

[٥١] العياشي: الرحلة ج٢ص٤٩٩.

(٥٢) الرحلة ج١ص ١٢٠ فقد كان العياشي يقول: عبر برقة المتناهية الأطراف ، المخوفة الأكناف.

[٥٣] العياشي: الرحلة ج١ ص ١٣٢.

[٥٤] العياشي: الرحلة ج١ ص١٩٨

[٥٥] العياشي: الرحلة ج٢ص٤٩٢

كل مكان، وقد ذكر العياشي أنهم في طريقهم لطرابلس خرج اللصوص على مقدمة الركب وسلبوهم، ولكن أمير الركب تبعهم وحده واستطاع أن يستعيد ما كانوا سلبوه[٥٦]، وكان اللصوص أحيانا يهاجمون مؤخرة قافلة الحجاج، وأحيانا كان يدور قتال حقيقي بينهم وبين حراس الركب[٥٧].وكانت هناك عقيدة لدى الحجاج بأن من تعرض لهم سينال عقاب من الله ظاهرًا وأنهم رأوا علامة ذلك في أهل برقة وإفريقية[٥٨]، "ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته بهم بالانتقام ممن يتصدى لهم لتعطلت طرق الحج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم وقلتهم وبعد الشقة عليهم"[٥٩].

ويذكر العياشي ما يدل على أن ضعف الحماية في ركب الحجاج هذا الموسم بسبب الأمان في الموسم السابق[٦٠]، مما يدل على توافر الأمن والسلامة في بعض الأعوام.

وكانت سيطرة الدولة على الأعراب وإخضاعهم أحد عوامل الاستقرار والأمان، وإذا ضعفت السيطرة عليهم كانوا يعارضون ركب الحجاج ويقاتلونهم وقد أورد العياشي قتال الأعراب لركب الحج أشد قتال سنة ١٠٥٥هـ، بحجة أن الأعراب كانوا يظنونهم تجارا[٦١]. وكانت حوادث السرقة متكررة على ركب الحج.

وكانت أشد العناصر إثارة لقلق السلطة العثمانية هم قبائل عرب الصحراء، ففي الجبل الأخضر من بلاد برقة كان العرب من السعادات والهنادي والجبالي يسببون المتاعب للحاج محمود عامل عثمان باشا والي طرابلس[٦٢]. ونلاحظ عدم انتشار ظاهرة سرقة الحجاج في طرابلس، وإنما خارج المدينة، وفي إقليم برقة "أكثر البلاد سرقة، وأعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل في ذلك مع إقدام وهجوم بالليل إن تكمنوا من ذلك"[٦٣].

وتأمين الركب بالأسلحة التى يحملها رجال الركب، فكان الركب مسلحاً دائماً، وكانوا يعقدون عقد خفارة، يعقده شيخ الركب مع القبائل التي تمر بها قافلة الحجاج[٦٤]، ويتم الاتفاق فيه على أجرة الخفير، التى تحدد على أحمال السلع خاصة، ولا تؤخذ ممن ليس معه سلع، ويقوم الحجاج بجمعها من بعضهم للخفير[٦٥].

---

[٥٦] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٩.

[٥٧] العياشي: الرحلة ج٢ ص٢٩٩. كان هناك رماة في الركب. ج١ص٢٠٩

[٥٨] العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٨.

[٥٩] العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٨. وزاد العياشي بأنه كم من قصر ومصر وإقليم يقطعونه بلا عسكر ولا عدة ولا عدد.

[٦٠] العياشي: الرحلة ج٢ ص٢٩٩.

[٦١] العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٨. وقال العياشي: ولولا وجود أربعين صعلوكا من حجاج أهل تادلا مع ركب الحجاج صدقوا القتال لنهب الركب.

[٦٢] العياشي: الرحلة ج٢ ص٤٩٤؛ وقارن شارل فيرو: الحوليات الليبية ص ١٤٩.

[٦٣] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٥.

[٦٤] انظر الرحلة ج١ ص ١١٩.

[٦٥] انظر الرحلة ج٢ص٤٩٢

٣-عادات وتقاليد حجاج بلاد المغرب بطرابلس.

قبل الوصول إلى طرابلس: كانت هناك معرفة بالمسافات والمراحل، فكانوا على علم بتحديد المدة الزمنية التى يمكن قطعها للوصول إلى طرابلس، فقد ذكر العياشي أن عادة الحجاج إذا كانوا على مقربة يومين من طرابلس قاموا بنحر آخر جمل بقي معهم، وأخذوا ماء يكفي ليومين[٦٦].

كان ركب الحجاج يسألون من يلتقون بهم في الطريق ليدلوهم عليه، فقد ورد عند العياشي ما يفيد سؤالهم لأحد التجار عن الطريق فسار معهم حتى أبلغهم ما أرادوا [٦٧].

ومن عادات أركاب الحج عندما تقترب من طرابلس ترسل رسولا منها لتجهيز حاجاتهم من مسكن وغيره وإذا وجد بالركب من له معارف أو أصدقاء بطرابلس كانوا يرسلون إلى أصدقائهم بطرابلس يعرّفونهم بقدومهم، ويطلبون منهم مساعدة الرسول في تهيئة ما يحتاجون إليه من مسكن وغيره [٦٨] .

وقد صف لنا العياشي حالة ركب الحج عند وصوله إلى مشارف طرابلس وصفا دقيقا كأنه يرسم صورة حية متكاملة لحال الحجاج والجمال، وقد صور حالة الإبل عندما رأت البحر وما أصابها من النفور والفزع والعدو؛ لأنها لم تكن رأته قبل ذلك، إذ غالبها من صحراء المغرب الأقصى وجباله، لا تعرف إلا الهضاب والتلول، وما أحدث فيها الشبع من النشاط والفرح لأنها وجدت الكلأ ، فاستراحت من التعب والمرض، فكان من الحجاج من أعرض عنها وتركها على حالها؛ لأنهم لم يعهدوا ذلك منها فيما مضى، حتى ترجع إلى حالها من التؤدة في المشي والسكينة[٦٩]، لكن حالها يتغير وتشرد فجأة كأنها اتفقت جميعها " فلا يعلم لها إدبار من إقبال، ورمت ما عليها من الأحمال، ولم تلق لما ألقت من الأمتعة من بال، ولم تبال قطع جديد من الحبال ولا بال، ولم يبق على ظهورها حقير المتاع ولا ذوبال"[٧٠]، ولم يسلم من ذلك إلا من بادر إلى إناخة إبله وعقلها. وحدث نفس الأمر في اليوم التالي، حيث عادت الإبل إلى النفور بسبب كثرة العشب لأنها إذا مشت كانت تسمع صوت "طاق طاق، فلحق الإبل من ذلك رعب شديد ، ولحق أهلها منها عناء مديد، فاتخذ الناس لها أرسانا[٧١] يقودنها بها أزمانا إلى أن خرجت من ذلك المكان ، وسكنت بعض السكون بالدخول بين المساكن

---

[٦٦] العياشي: الرحلة ج١ ص ١٢٩.

[٦٧] العياشي: الرحلة ج١ ص ١٢٦.

[٦٨] العياشي: الرحلة ج١ ص ١٣٢. ومن ذلك ما صنعه العياشي قال: تقدم بعض أصحابنا إلى مدينة طرابلس لتهيئة المحتاج إليه من مسكن وغيره، وكتبت معه كتابًا لشيخنا سيدي محمد بن مساهل لنعلمه بقدومنا والوقوف مع أصحابنا في مهماتنا" . الرحلة ج ١ ص ١٣٢.

[٦٩] العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.

[٧٠] العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠. ويذكر العياشي أن البضائع والجمال تلفت .

[٧١] أرسان: جمع رسن وهو ما كان من الأزمة على الأنف. انظر ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ج١ ص ١٠٧.

والسكان، فحصلت لها بعض الدعة ، بعد أن أتلفت في ذلك اليوم بعض الأمتعة"[٧٢].

أما حال الحجاج فلا تسمع إلا صياحهم على اليمين والشمال، "كأنهم رافعون أصواتهم بالإهلال"[٧٣]، وأخذوا في جمع ما سقط من الأمتعة ونقلها، وبات كل واحد مكانه متفردا، وبات الناس يترددون في الطرقات، ويجمعون ما تساقط من الأمتعة في الفلوات[٧٤] وفي كل واد، فلم يسأل جار عن جاره، "وقد عمّهم الطيش ، كأنما دهمهم الجيش"[٧٥]، ولم يسلم من الضياع إلا القليل حتى حار في أمرهم الدليل[٧٦]. وركب أصحاب الخيل والنجائب وساروا في طلب ما تلف من الأمتعة والركائب ، فجمع الله الإبل كلها عليهم إلا جملين، وأما الأمتعة فضاع منها بضائع لبعض الحجاج [٧٧] وظهور علامات الفرح والسرور عليهم.

الإقامة بطرابلس: كان ركب الحج يقيم بطرابلس نحوًا من شهر، يستعدون لترحال يستغرق ثلاثة أشهر حتى بلوغ مصر[٧٨].وكان الركب ينزل قريبا من المساجد، ويأوي أهله في خلوات المساجد والربط، وقد اعتاد العياشي أن ينزل عند وصوله طرابلس على باب المسجد المسمى جامع الحاج إبراهيم بأقصى المدينة قرب ضريح ولى الله تعالى سيدى سالم المشاط[٧٩]، وكان بعضهم يبيت في بعض المنازل عند أصدقاء لهم[٨٠].

ويصف العياشي كثرة الحجاج بطرابلس فيقول: "وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الأراحى، فيلاقى الحجاج من ذلك مشقة، ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها، لصغرها وكثرة الواردين، لاسيما من لم تطل إقامته... وذلك شأن ركب الإبل الواردين على الصحراء فى كل سنة، فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جل ما يحتاجون إليه، ومن يتعجل في الإقامة من ركب الإبل يقيم على الأقل عشرة أيام، ويحتاجون فيها إلى الزاد فقط[٨١]، أما ركب الجريد أهل البغال

---

(٧٢) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠. ويذكر العياشي أن البضائع والجمال تلفت .

(٧٣) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.

(٧٤) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠. ذكر العياشي أنه إن لم يصنع ذلك صار من ماله وإبله متجردا.

(٧٥) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.طاش عقلُه : لم يتمالكْ نفسَه عند الغضب ، اختلَّ. وطاشَ السهم عن الهدف أي عدل وأطاشَهُ الرامي والطَّيْشُ أيضا النزق والخفة والرجل طَيَّاشٌ انظر الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٩١.

(٧٦) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠.

(٧٧) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٠. ذكر العياشي أن البضائع أخرجت من وسط المتاع ، فاتهم في أخذها الصعاليك الذين في الركب ، وظن الناس أن ذلك يظهر قريبا ، فلم يظهر ذلك إلا بعد مدة ودخول الحجاج إلى مصر في العودة.

(٧٨)العياشى: الرحلة ج١ ص ٤١.

(٧٩)العياشى: الرحلة، ج١ ص١٣٦.

(٨٠) ذكر العياشي: بينا تلك الليلة في دار صاحبنا سيدي أبي العباس خادم زاوية سيدى أحمد زروق. العياشى: الرحلة، ج٢ص٤٩٩.

(٨١)العياشى: الرحلة، ج١ص١٣٦.

والحمير فتطول إقامتهم بها فى الغالب، وربما أقاموا الشهرين أو أزيد" [٨٢].

وكان أهل زواغة ممن اشتهروا بضيافة الحجاج قال التيجانى: وأهلها مشكورين مكرمين للحجاج على الضد من جيرانهم أهل زوارة ولم يكن يسمع عن أحد منهم بيع مسلم ولا تعرض له بسوء [٨٣].

وكانت عادة الأركاب المبيت بتاجورة كما اشتهر أهلها بأنهم يضيفون الحجاج ضيافة حسنة[٨٤].

وكان الحجاج يخرجون إبلهم أثناء إقامتهم بطرابلس إلى موضع يقال له وادى الرمل[٨٥].

وفي أثناء إقامة العياشي بطرابلس دخلت الأركاب الآتية للحج، من تونس وفاس ومراكش والجزائر[٨٦]. وأحيانا تلتقي بطرابلس الأركاب العائدة من الحج والذاهبة إليه في ذات الوقت، فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة أو ستة[٨٧].

وفي طرابلس كان اللقاء مع أمير ركب الحج الجزائري، الشيخ الفقيه سيدي محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني[٨٨] وبصفة طرابلس مركزا رئيسا على طريق الحج المغربي.

الحفاوة من العلماء والمشائخ: كان الحجاج يستقبلون بحفاوة وترحاب من علماء القرى والمدن، ويزور أفراد الركب ذوى الفضل من الصلحاء والعلماء والفقهاء[٨٩]، كان علماء الإقليم يقدمون الطعام للحجاج ويساهمون في تزويدهم بالتمر والشعير وغيره، والسير معهم أميالا كثيرة وتوديعهم[٩٠]، وكان الحجاج يطلبون منهم الدعاء لهم[٩١].

زيارة الأضرحة : يُلاحظ على حجاج المنطقة طلب الغوث والمدد من المشائخ والحجاج فكانوا يستجدون كراماتهم وشفعاتهم، ويطلبون منهم الدعاء لهم عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكان الصوفية من الحجاج يدخلون في كل الطرق الصوفية التى تصادفهم في الطريق ، والظاهر أن الدخول في الطرق الصوفية كان مسألة شكلية لا يترتب عليها واجبات أكثر من الأخوة في الله، ولقد ظهر ذلك عند العياشي الذي منحه شيخه الثعالبي الجزائري الإجازة العامة في الدخول في كل الطرق الصوفية[٩٢].

---

[٨٢] العياشى: المصدر السابق ج١ ص٦١، ص١٣٦؛ الورثيلانى: رحلة الورثيلانى التى تسمى نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٨١.

[٨٣] التيجاني: رحلة التيجانى، دار الفرجانى للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، (د. ت)، ص٢١١

[٨٤] العياشي: الرحلة ج١ ص١٧٨.

[٨٥] واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه في شتا ولا في صيف. انظر رحلة التيجاني ص٣١٠، وهو واد مخصب فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسواحلها أيام الربيع. العياشي: الرحلة ج١ ص١٧٨.

[٨٦] انظر العياشي: الرحلة ج٢ ص ٣٨٠-٣٨٢.

[٨٧] انظر العياشي: الرحلة ج١ ص ١٣٦.

[٨٨] العياشي: الرحلة ج٢ ص٣٩٠.

[٨٩] العياشي: الرحلةج٢ص٥٠٣.

[٩٠] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٨، ص ١٧٨ .

[٩١] العياشي: الرحلة ج١ ص١٢٨.

(٩٢) العياشي : الرحلة ج١ ص٢٠٥-٢٠٩. ويلاحظ عناية العياشي بزيارة الأضرحة.

ويظهر من رحلة العياشي أن للمغاربة في هذا العصر عقيدة كبرى في طلب الغوث والسلامة وغيره من الأولياء والعلماء الأحياء، بل والأموات أحيانا[٩٣]. وكان من عادة الحجاج زيارة الربط والزوايا[٩٤] وكان بعض الحجاج يفطر في شهر رمضان وهو في طريقه إلى الحج[٩٥]، وكان بعض الحجاج يكتب من طرابلس إلى أشياخه وأصحابه وأهله من أهل بلده نثرا ونظما[٩٦].

الحمام: كان مما تتميز به طرابلس وجود الحمامات المنتشرة على أرضها، ومن ذلك حمام البلد وهو المجاور للقصبة، وكان صغير الساحة، وكان من منافع القصبة، وبالبلد حمامان آخران إلا أنهما فى الحسن دونه[٩٧]، كما يعتبر الحمام المجاور لجامع درغوت من أحسن الحمامات الموجودة في طرابلس ويعود إنشاؤه إلى عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م[٩٨].

[٩٣] العياشي : الرحلة ج١ ص ١١٢-١١٣.

[٩٤] لقد عرّف الرحالة التيجاني الربط الصوفية بطرابلس فقال: وهي مساكن للصالحين قديمًا وحديثا شهيرة، والناس يزورنها ويتبركون بها، وإنها لمن أحسن المساكن لمن يريد الانفراد لعبادة ربه، والساكن بها يجمع بين الاحتراس ومجانبة الناس. الرحلة ص٢٢٠. ولمعرفة المزيد عن الربط بليبيا انظر د. محمد عبد الهادى شعيرة: الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية، ليبيا فى التاريخ، المؤتمر التاريخى، مارس ١٩٦٨م ص ٢٣٦

[٩٥] الرحلة ج١ص١٠٩.

[٩٦] انظر العياشي ج١ص٧٦.

[٩٧] التيجانى: الرحلة ص ٢٣٨.

[٩٨] العياشي : الرحلة ج١ ص ١٤٣.

الإعداد للمرحلة التالية:

يصف العياشي بأن الإبل عندما تصل إلى طرابلس تكون متعبة ومريضة وضعيفة "ولا تكاد ترى فيها سمينة"[٩٩]، وكانت وسيلة الانتقال والسفر من البلاد المجاورة وإلى طرابلس هي البغال والحمير[١٠٠] .

كان من عادة كل ركب إذا حل بطرابلس أن يقيموا بها نحوًا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التى قل نظيرها، وهى مفازة برقة وكانوا يتخذون من طرابلس الأدلاء الذين يرشدونهم إلى الطريق [١٠١]، ويشترى الحجاج ما يحتاجونه من الإبل إما لضعف الإبل التى معهم أو لضياع بعضها[١٠٢]، وتبدل القافلة جمالها المتعبة وتستعين بأخرى، ويكون حصول القافلة على جمالها عن طريق الأجرة[١٠٣]، فقد اعتاد رجال القبائل على تأجير جمالهم إلى تجار القوافل، وغالبا ما يرافقون الجمال، وفي هذا المجال كان سوق طرابلس يشيد بالإبل المحلية وبالقرب المصرية، حيث كان ينصح المسافر، "بجمل طرابلس وقربة مصرية"[١٠٤].

[٩٩] العياشي : الرحلة ج١ ص ١٣١.

(١٠٠) العياشي: الرحلة ج١ ص ٥٥.

[١٠١] الحشائشي: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق على المصرتى، بيروت، ١٩٦٥م. ص ٣٩.

(١٠٢) الرحلة ج١ص ١٧٣

[١٠٣] يتم تغيير الجمال بعد سير يتراوح بين ٥٠٠ – ٦٠٠كيلو متر تقريبا.

(١٠٤) الرحلة ج١ص٩٠

وكان الحجاج يتخذون زادًا نحوًا من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاءً، ونحو شهرين إن كان صيفًا، ويطول بهم المقام لبيع الدواب وشراء ما يحتاجونه؛ فكأنهم يستأنفون منها سفرا آخر غير السفر الذي كانوا فيه قبل ذلك؛ لأنه مخالف له في كثير من أحواله، حتى كأنه لا يشاركه إلا في مطلق السفر. ولذلك تجد كثيرا ممن لم يتقدم له حج يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من الخروج من بلده(١٠٥)، ففي طريقهم إلى مصر مسافات لا يجدون فيها ما يتسوقون ومنها مورد التميمي(١٠٦).

توفرت في غدامس الجمال وأدوات الركوب التى تحتاجها القوافل، التى تستبدل جمالها المتعبة في غدامس بأخرى مستريحة، ولطول فترة إقامة الحجاج بطرابلس فإنهم كانوا يؤثروا ويتأثروا بعادات وتقاليد وثقافة المجتمع.

أرض برقة : لم يكن في وسع رجالها الشرب سوى من مياه القرب التى كانت مشحونة فوق ظهور الإبل؛ لأن مياهها تحتوى على الكبريت، وتؤدي بشاربها إلى الإصابة بالاسهال(١٠٧). وقد ذكر العياشي أن الإبل لم تشرب ماء منذ مغادرة طرابلس حتى خرجت من برقة لمدة تسعين يوما(١٠٨)

الجهاز الإعلامي:

كان ركب الحجاج في طريق الذهاب إلى بلاد الحجاز يتلمس اللقاء بالقوافل العائدة من الحج لمعرفة أخبار الطريق والبلاد التي سيمرون عليها من حيث الأمان وتوافر سبل الحياة من طعام وشراب وأماكنها، ومعرفة أخبار بلاد الحجاز والسؤال على من بها من العلماء والأصدقاء ولقاء بعض أهل بلدهم وتسليمهم رسائل إلى أهلهم وأصدقائهم إذا كان بالركب أحد من بلدهم أو ممن يمرون بها، وكان ممن التقى بهم العياشي في طريق الذهاب ركب الحجاج المغاربة من أهل مراكش ومن انضاف إليهم وكان معهم بعض أهل سجلماسة التقى بهم في ديار طرابلس فسألوهم عن خبر البلاد التى سيقبلون عليها، وقد وصف العياشي شدة الشغف لمعرفة أخبار البلاد التى سيمرون عليها بقوله: "وكان لقاؤنا للركب في أشد ما يكون من القلق"(١٠٩)، وكانت فترة لقاء الركبين قصيرة فلم يستوعبوا لهم جل الأخبار التى يريدونها، وبعثوا معهم كتبا إلى من ببلدهم "من الأهل والعشيرة والأصحاب"(١١٠).

والتقوا بركب أهل الجزائر العائدين من الحجاز في ديار طرابلس فأجابوهم عن كل ما سألوهم من أخبار الحجاز وأهلها(١١١)، كما التقوا بركب أهل تونس عائدين من الحجاز فقال" أخبرونا عما

(١٠٥) العياشي: الرحلة، ج١ص١٣٦. ويشق على الحاج كذلك الخروج من مصر بالنسبة إلى ما قبلها.
(١٠٦) العياشي: الرحلة، ج٢ص٤٩١
(١٠٧) شارل فيرو: الحوليات ص ١٤٩.
(١٠٨) الرحلة ج١ص٢٠٧
(١٠٩)العياشي : الرحلة ج١ص١٣٢
(١١٠)العياشي : الرحلة ج١ ص ١٣٣.
(١١١)العياشي : الرحلة ج١ ص ١٣٣-١٣٤.

استقبلنا من البلاد بخبر الخير من الخصب والرخاء والعافية" [١١٢].

وكانت هناك رغبة شديدة لدى الركب للسؤال عن أصدقائهم بأرض الحجاز، ولكن الأمر يختلف إذا لم يكن في الركب أحد يعرفونه لذلك قال العياشي عن ركب أهل تونس العائدين من الحجاز " لم يكن فيهم أحد ممن نعرفه حتى نستقصى منه الأخبار"[١١٣].

وكانت العادة عندما تضلّ جماعة من أهل الركب عن القافلة ليلاً أن توقد النار، وبرفع مصباح مضئ على رمح ، ويضرب بالطبل والمدافع[١١٤].

فبالنسبة لظروف الانطلاق فإن طابعها الاحتفالي كان على شاكلة ركب الحاج المغربي. فقد كان هذا الأخير يخرج كما يقول الكاتب المغربي الاسحاقي :" فى يوم مشهود ولا يبقى من بالمدينة إلا خرج ودب ودرج الرجال والولدان، والأحرار والعبدان، فما ترى أحسن من ذلك اليوم ولا أحسن منه منظراً ولا مخبراً..." [١١٥].

الخروج من طرابلس:

كان من عادة بعض أهل طرابلس الخروج لتوديع ركب الحج لمسافات طويلة، ومن ذلك ما صنعه الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الصيد الطرابلسي، فقد خرج يشيع ركب أهل الجزائر القافلين من الحج حتى جربة[١١٦].

٤-عادات وتقاليد حجاج طرابلس في رحيلهم وعودتهم.

كما أن الحالة الاجتماعية والاقتصادية في ليبيا لها دور كبير في قلة عدد الحجاج، ولقد تعددت صور الاحتفالات آنذاك فكان موكب الحج من الاحتفالات المشهودة عند السكان، وجرت العادة أن تزين الأسواق والدور وغيرها إظهارًا للفرحة والسرور، وكان فى الغالب أن تجتمع ركاب الحاج المغربية ذهابًا وإيابًا فى طرابلس فى شهر رجب أى تستغرق رحلة الحاج من طرابلس عامًا هجريًا[١١٧].

لهذا كان يكثر الزحام بها لشراء لوازم الرحلة من دواب وقرب وزاد وغيره، ولولا سماحة أهلها وإكرامهم للحجاج لما تهيأ لهؤلاء الحصول على ما يحتاجونه، خاصة وأنه قد يجتمع بها من الركبان الذاهبين والعائدين خمسة أو ستة، مما يعنى كثرة مواكب الحج التى تجتمع فى طرابلس فى ذهابها وعودتها من الحج، فهناك من يذهب إلى الحج ماشيًا، ولا يحمل معه ما يقتات به، وإنما يعتمد على الشراء من أحياء البربر فى برقة وطرابلس وغيرها. وكانت تستقبل هذه الركائب، وتشيع فى مهرجان كبير وفرحة عامرة تقرع فيها الطبول، ويحضرها حشد من الرجال والولدان والسادة

(١١٢)العياشي : الرحلة ج١ ص ١٢٩. وكان الركب دائما يتضرعون إلى الله تعالى بالدعاء لبلوغ بلاد الحجاز، قال العياشي: "نسأل الله الكمال"

(١١٣)العياشي : الرحلة ج١ ص ١٢٩ .

(١١٤) العياشي: الرحلة ج ٢ ص٣٧٧.

(١١٥) د. يونان لبيب: العلاقات المصرية المغربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٠، ص٤٦.

(١١٦) العياشي : الرحلة ج١ ص ١٤٠ .

(١١٧) د. يونان لبيب: العلاقات المصرية المغربية، ص٤٧.

والعبيد، وحرص الحجيج على زيارة الصالحين والزهاد بطرابلس للحصول على دعائهم وبركاتهم قبل رحيلهم[١١٨].

ومن عادات أهل طرابلس أنهم كانوا يؤذنون خلف الركب المغادر لطرابلس، فكان الأذان خلف ركب الحاج من قبل المشيعين بشرى أمان وسلامة وبركة للركب حتى يعودوا[١١٩]، كما كان الركب الرسمي الذي يتجه من إفريقية أو غيرها إلى مصر ومنها إلى البقاع المقدسة مارّا بالإقليم يحمل علم في الذهاب والإياب، ويخرج الركب من أبواب المدينة دون دفع مكوث أو مغارم على ما يحملونه معهم من أمتعة، وبعد عودتهم يستقبلون استقبالاً مشهودًا، يبدءون بعده فى دخول الحمامات العامة للمدينة للاغتسال والتطهير، ثم يذهب بعد ذلك كل حاج إلى بيته وسط حشد من الأحباب والمستقبلين.

أما الحجاج في المدن الداخلية فمن المرجح أن يكون خروج ركبهم أقل بهرجة نتيجة لضعف موارد أهل الصحراء ولندرة أدوات الزينة والبهرجة وغيرها من المتطلبات الشكلية، هذا بالإضافة للتقليد المالكي الذى لا ينظر بعين الرضا إلى بعض المراسيم الشعبية، سداً منه للذرائع.

ويبدو أن إقليم برقة وطرابلس لم تكن تخرج منها رحلة حج واحدة نظرا لاتساع أراضيه، فكان يخرج منه عدة رحلات حج فى فترات مختلفة، كانت أحياناً تنقسم إلى رفاق مختلفة تتلقي فى إحدى مراحل الطريق أو تلتحق بركاب مغربية مختلفة، وكان التجارة يتحينون قدوم الحاج حتى يذهبوا في خفارته[١٢٠].

وكان للعامل الاقتصادي دور واضح في التيسير لقضاء فريضة الحج ،فكان أمراء المغرب يترددون إلى الحج كما ورد عن العياشي[١٢١]، وكان البعض يطول به المقام بأرض الحجاز فيجاور عدة من السنين[١٢٢].

العودة : وكان من عادة الحجاج عند قرب الوصول إلى طرابلس يبشرون أهلهم بقرب الوصول إلى بلادهم. وقد التقى العياشي بأهل طرابلس الخارجين للقاء إخوانهم أفواجًا عند وادي الرمل[١٢٣]، كما صور لنا الادب الشعبي حالة أهالي النجع الذين يترقبون عودة الإبل من سفرها لاحضار الزاد والمؤنة، يحدث من انفجار الفرحة والبهجة برئية طلائع القافلة التى تلوح عائدة من

(١١٨) تيسير بن موسى: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨، ص١٣٤.

(١١٩) العياشي: الرحلة ج١ص١٤٠. وقد ذكر العياشي أن الشيخ ابن مساهل فعل ذلك مع ركبهم عند خروجه من طرابلس ووداعه لهم خارج داره ، وأنهم رأوا بركة ذلك.

(١٢٠) العياشي: الرحلة ج١ص٢٠٨

(١٢١) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٢.

(١٢٢) العياشي: الرحلة ج١ ص١٣٣.

(١٢٣) العياشي: الرحلة ج٢ص٥٠٠.

بعيد[١٢٤]، وكانت تقاليد استقبال القافلة العائدة من السفر [١٢٥]، فكان أهل بيت الذى يسافر للحج بعد خروجه للحج يقيمون حفلا في منزله وفي ليلة الوقوف بعرفات كانت النساء بغدامس يحيين حفلا في منزل الحاج ويستمر حتى آخر الليل، وبعد صلاة الفجر تخرج النساء بالمباخر ويتجمعن بقرب ضريح سيدي عقبة ويطلقن البخور ويضربن الطنابير ويتغنين بأغان أشبه بالدعوات منها للغناء ويبقين إلى شروق الشمس ثم يتفرقن [١٢٦]

مفهوم الحج:

كانت زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترادف حج بيت الله الحرام، وقد ورد هذا في ثنايا رحلة العياشي ومن ذلك وهو يتحدث عن ركب الحج " وفد الله ووفد رسوله"[١٢٧]، " وينصر زوار رسوله بما به نصر رسوله" [١٢٨]، " وصلى بين قبره ومنبره عليه السلام ، وزار محله الشريف ومحل أصحابه الأعلام" [١٢٩].

وقد ارتبط الحج إلى بيت الله الحرام لدى كثير من الناس بزيارة الحضرة النبوية الشريفة أو زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أداء الفريضة التى أصبحت بالتبعية هي الأخرى بمثابة زيارة بيت الله الحرام، حتى أصبح مفهوم الحج لدى كثير من الناس هو زيارة قبر النبي تعظيما له والسعى لاكتساب شفاعته، ففى مدينة طرابلس الغرب، عندما طلب البوابون رسوم المرور وبدل الطريق (ضريبة المكس) [١٣٠] المقررة على أساس أنه يوجد مع الحجاج بعض أمتعة التجارة، رفض أهل الركب أن يدلوهم عليها، حيث قالوا: "نحن لا يمكننا منع أحد التجأ إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٣١]، فكأن الحج في عرفهم هذا هو الزيارة قبل أداء الفريضة أو التجارة.

الخاتمة

خلصت في بحث طرابلس الغرب محطة الحجاج المغاربة إلى أن المنطقة كانت ذات قيمة كبرى ومحطة رئيسة للحجاج المارين بإقليم طرابلس في رحلتي الذهاب والعودة، كما كان لمرورهم بالإقليم

---

[124] د. علي محمد برهانة: الشعر الشعبي، جمع وتقديم ، منشورات المركز الوطنى للمأثورات الشعبية ، الطبعة الاولى، سبها، ١٩٩٨م، ص ٨٦– ١٠١.

[١٢٥] د. يونس عمر فنوش: المجتمع الليبي في الأدب الشعبي، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول يناير ٢٠٠٠م، ص ١١٦.

[١٢٦] انظر بشير قاسم يوشع: غدامس ملامح وصور، طبعة مطابع الفاتح، مصراتة، ليبيا، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ٣٠٩؛ وقارن اوريدة صالح محمد صالح: الحياة الاجتماعية في غدامس أثناء العهد العثماني (١٨٣٥–١٩١١م)، مجلة صحيفة دار العلوم ، القاهرة، الإصدار الرابع ، السنة الحادية والعشرون، العدد الخامس والأربعون رجب سنة ١٤٣٤هـ/ يونية ٢٠١٣م، ص١٠٠.

[١٢٧] العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٨.

(١٢٨) العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٩.

(١٢٩) العياشي: الرحلة ج١ ص٢١٩. وأن لهذا مدد يسري في أديانا وبلادنا وأبداننا وسائر متعلقاتنا ، ولو انقطعت رؤيتهم لاختل النظام، وانقطع الخير بين الأنام.

[١٣٠] ضريبة المرور كانت تفرض على تنقل الاشخاص داخل البلاد وخارجها، وكانت معروفة ومطبقة من أوائل الدولة العثمانية.

[١٣١] العياشي: الرحلة ج١ص ٨٩.

أثر عظيم على سكان المنطقة حيث تأثرت حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

المصادر والمراجع

١. **اتوري روسي:** ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، طبعة الدار العربية للكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/١٩٩١م

٢. **اوريدة صالح محمد صالح:** الحياة الاجتماعية في غدامس أثناء العهد العثماني (١٨٣٥-١٩١١م)، مجلة صحيفة دار العلوم ، القاهرة، الإصدار الرابع ، السنة الحادية والعشرون، العدد الخامس والأربعون رجب سنة ١٤٣٤هـ/ يونية ٢٠١٣م

٣. **بشير يوشع:** غدامس وثائق تجارية، طرابلس مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطالي، ١٩٨٢.

٤. **بشير قاسم يوشع:** غدامس ملامح وصور، طبعة مطابع الفاتح، مصراتة، ليبيا، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

٥. **التيجاني:** رحلة التيجانى، دار الفرجانى للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، (د. ت).

٦. **تيسير بن موسى:** المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨، ص١٣٤.

٧. **ابن بطوطة:** الرحلة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

٨. **الحسن الوزان:** وصف أفريقيا، ترجمة الدكتور. عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.

٩. **الحشائشي:** جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق على المصرتى، بيروت، ١٩٦٥م.

١٠. **خليفة التليسي:** حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الطبعة الثانية،

١١. **الرازي:** مختار الصحاح، تحقيق شهاب الدين أبى عمر، ترتيب محمود خاطر، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

١٢. **الطاهر الزاوي:** تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، طرابلس، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

١٣. **سلفادور بونو :** تجارة طرابلس عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني ١٩٨١- طرابلس – مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية.

١٤. **شارل فيرو:** الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق د. محمد عبد الكريم موافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.

١٥. **علي محمد برهانة"دكتور":** الشعر الشعبي، جمع وتقديم ، منشورات المركز الوطنى للمأثورات الشعبية ، الطبعة الاولى، سبها، ١٩٩٨م

١٦. **عمر محمد الباروني:** الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٥٢م

١٧. **عوض مصطفى السعداوي:** حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته، المؤتمر التاريخى، ليبيا فى التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الليبية، ١٦-٢٣ مارس ١٩٦٨م

١٨. **العياشي:** الرحلة العياشية، تحقيق د. سعيد الفاضلي ود. سليمان القرشي، طبعة دار السويد للنشر والتوزيع، الإمارت العربية المتحدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦

١٩. **فرديدريك هورغان:** رحلتان عبر الصحراء، طرابلس، دار الفرجاني، ١٩٧٤

٢٠. **محمد الصغير بن الحاج الوفراني:** نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادى، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٠م

٢١. **محمد بن الطيب القادري:** نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبعة فاس ١٣١٠هـ.

٢٢. **محمد عبد الهادى شعيرة** "دكتور": الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية، ليبيا فى التاريخ، المؤتمر التاريخى، مارس ١٩٦٨م

٢٣. **ابن منظور:** لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، (د.ت).

٢٤. **النائب الأنصاري:** المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت

٢٥. **الورثيلانى:** رحلة الورثيلانى التى تسمى نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٧٤م

٢٦. **يونان لبيب"دكتور":** العلاقات المصرية المغربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٠

٢٧. **يونس عمر فنوش"دكتور":** المجتمع الليبي فـــي الأدب الشـــعبي، مجلـــة البحـــوث التاريخية، العدد الأول يناير ٢٠٠٠م